الشيخ محمد المامي بن البخاري وشهادته على عصره
من خلال كتبه وآثاره
1202هـ/1282م

الدكتور. عبد الله أحمد حمدي
رئيس مركز الضياء الكندي للدراسات العربية

تسعى هذه الورقة إلى دراسة شخصية الشيخ محمد المامي منطلقة بالأساس من مؤلفاته وآثاره باعتبارها أصدق معبر عن حياة الرجل فهي المرآة العاكسة لكل أطوار حياته في ظعنه وإقامته ودرسه وتدريسه وعلاقته بعلماء عصره، والسلط المركزية يومئذ «العمالتين الإسماعيلية والبوصيابية» مستأنسين ببعض المؤلفات التي كتبت عن الشيخ قديما وحديثا مثل «مفاد الطول والقصر» لمحمد الخضر وبعض المذكرات الجامعية.

* **مولده ونشأته :**

ولد الشيخ محمد المامي بن البخاري بن حبيب الله على الراجح[1] سنة 1202هـ/1789م في ضواحي مدينة "آوسرد" بالصحراء الغربية. وتوفي سنة 1282هـ/ 1865م.

وكان كثيرا ما يستهل انظامه بتعريف كامل لنفسه ووطنه بمفهومه الواسع (المغرب العربي) وبمذهبه في العقيدة والفقه وطريقته في التصوف يقول في مقدمة نظمه المسمى نظم القواعد:

قال عبيد ربه المقتــدر — محمد ابن البخاري الأشعري
القادري المالكي المذهب — المغربي البركي النســـب

ويقول أيضا في نظمه لأهل بدر:

سمى والي بوصياب[2] المامي[3] — صاحب الاستهداف بالأنظام

* **أسفاره داخل البلد وخارجه :**

لقد هاجر الشيخ محمد المامي إلى القبلة[4] هجرة لانعرف دوافعها الخفية[5] ولا مدتها

---

[1] هناك اختلاف في السنة التي ولد فيها بين من حاولوا التأريخ لميلاده. راجع مذكرة تخرج بالمعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية عن شخصية الشيخ محمد المامي سنة 1984 للطالب محمد عبد الله بن محمد محمود ص17. وشرح الصدر لمؤلفه محمد ولد أحمد مسكه.

[2] بوصياب: يعني ببوصياب الدولة الألمامية في فوتا تور على ضفة نهر السنغال وسماها بوصياب وهو من أهم مراكزها. راجع مجلة المستقبل العربي عدد 72 فبراير 1985 مقال للأستاذ أحمد بن الحسن عن مظاهر الوعي القومي عند مثقفي بلاد شنقيط في القرنين 18-19 ص112.

[3] المامي: هو الإمام عبد القادر كان التكروري المشهور بالعدل والجهاد، والمامي تحريف لكلمة "الإمام" العربية، شرح الصدر مرجع سابق ص10

[4] القبلة هي المنطقة الجنوبية من البلاد وقد مثلت مركز اشعاع علمي في المنطقة؛ كما كانت مسرحا لحرب "شربيه" المشهورة.

الزمنية، وقد جال في نواحيها المختلفة بحثا عن العلم والعلماء ولكنه ثم عبر النهر قاصدا بلاد السودان، حيث اتصل بأمراء النظام الالمامي[6] وشاهد نشاطاتهم وباركها واعتبر نظامهم نظاما إسلاميا شرعيا، كما اعتبر جماعتهم من جنس جماعة المسلمين القائمة مقام الإمام[7] كما كانت له مراسلات شعرية مع المجاهد الحاج عمر الفوتي[8] الذي صاهره فيما بعد.

وقد سجل الشيخ محمد المامي هذه الرحلة في آثاره في صور مختلقة:

ففي كتاب البادية -مثلا-[9] عرض وتقويم لجملة من المظاهر الإجتماعية في هذه البلاد، كما نلاحظ حضورها في إنتاجه الشعري الفصيح والشعبي أثناء إقامته فيها على شكل حنين وشوق إلى وطنه وشعور بالوحدة والغربة. يقول:

وسلجمة خضراء حفت بيابس من الأرض قفر ليس فيه عريب
فقلت لها لما رأيت اغترابها وإن كلانا شاحط وغريب
«أجارتنا أنا غريبان هاهنا وكل غريب للغريب نسيب»[10]

ويقول قصيدة طويلة من الشعر الحساني:

دارن في دشرت لعجام ما نسهد فيه كلم[11]

ونتيجة لظهور متغيرات خطيرة في بنية القبيلة كادت تذهب بوزنها السياسي والاجتماعي في المنطقة قصده سيدي ولد محمد مولود[12] داعيا إياه للقدوم إلى قومه للمساهمة في إصلاح ذات بينهم وإعادة بناء كيانهم الداخلي في قصيدة نصحية وعظية يطبعها طابع حكمي يمتاز بالدعوة إلى التأمل ومحاسبة النفس. يقول:

ياقوم توبوا فلا عار ولا خطل فبالمتاب يماط الذنب والزلل

إلى أن يقول: لا تتركن قبيلا أنت مصلحه فالملح من عدمه قد يفسد الأكل

مما أخص وتعنيه مخاطبتي محمد المامي ركن القوم ان حفلوا

* **دراسته ومصادر ثقافته :**

لقد عاد الشيخ محمد المامي من رحلته يحمل ثقافة واسعة يمكن أن توصف بالموسوعية مما سيدعونا إلى التساؤل عن مصدر هذه الثقافة، وعن امكانية معرفة روافده العلمية، إن المصادرة المتوفرة عن الرجل لحد الساعة لا تكفي للكشف عن مصدر ثقافته. فماهو شائع

---

[5] تقول بعض المصادر الشفوية إن سبب هجرته إلى القبلة، ربما يكون راجعا إلى حسد ابناء العمومة، راجع مقابلة بتاريخ 1983/10/06اجراها صاحب مذكرة الشيخ محمد المامي حياته وآثاره مع حفيد الرجل محمد عبد الله بن الشيخ عبد العزيز بن الشيخ محمد المامي، (مرجع سابق) ص19.

[6] شهدت منطقة غرب افريقيا انظمة اسلامية مثل النظام الألمامي في "بوندو" في الجنوب الشرقي لفوتاتور والنظام الألمامي في "فوتاجالو" عند المجرى الأعلى لنهر السنغال. راجع نشاة النظام الألمامي في فوتاتور مرجع سابق

[7] راجع كتاب البادية ص: مخطوط بدار الثقافة - انواكشوط تحت رقم 1836

[8] راجع التعريف به في ص... من هذا البحث

[9] راجع جمان كتاب البادية، ص79 مخطوط بدار الضياء للدراسات والنشر في موريتانيا تحت رقم

[10] مقابلة مع حفيده سيدن بن محمد خليه في مدينة أكجوجت بتاريخ 1985/10/12.

[11] راجع ديوان الشيخ محمد المامي الحساني ، مخطوط بدار الثقافة تحت رقم :3323

[12] سيد بن محمد مولود، ابن عم الشيخ محمد المامي عاش في القرن الثالث عشر كان من تلامذة محظرة آل الشيخ سيد المختار الكنتي.

مطرد عن جل من قابلناه من أحفاده، أنه لم يتخرج من محظرة من المحاظر الشنقيطية المعروفة ولا يعرف له من الشيوخ إلا:

أ- والده الذي درس عليه القرآن.

ب- أخوه الأكبر الذي درس عليه مختصر خليل

ت- هذا فضلا عما ذكره محمد الخضر[13] من انتمائه للطريقة القادرية؛ مع انه لم يذكر عمن أخذها، لكن المتفحص لآثاره يلاحظ صدورها عن قراءة نهمة للكتب وجهد عظيمين في البحث، استمع إليه يخاطب معاصريه ذاكرا ما يعانيه من جد وتعب وجوع في سبيل تحصيل هذا العلم وتأليفه. يقول:

توسدوا من أذرع الخرائد حين اكتحالي بالدخان الواقد
واشتغلوا باللهو والملاعب وأنا في الجد وفي المساغب
لكي أقرب لهم بالنظم مسافة النثرة ذرع النجم[14]

لقد كان الرجل على اطلاع واسع واتصال بعطاء العلماء البارزين في البلد، يتضح ذلك من خلال إحالاته الكثيرة والمتنوعة على كتب لم تكن موجودة؛ وعلى مراكز الإشعاع الفكري المتنوعة بين مناطق البلاد المختلفة، من "القبلة" التي قضى فيها زمنا ليس بالقصير هيأ له الإتصال بعلمائها مباشرة وبالكتب المتوفرة فيها آنذاك، إلى "ازواد" حيث الشيخ سيد المختار[15] الكنتي. وتيمبكتو، حيث أحمد باب،[16] محظرة الكحلاء والصفراء، حيث حبيب الله ولد القاضي[17] وادان وشنقيط،حيث ابن الأعمش[18] إلى تجكجة حيث سيد عبد الله بن الحاج ابراهيم[19].

هذا فضلا عن اقتنائه لمعظم الكتب الفقهية واللغوية والمنطقية التي وصلت إلى البلاد.

*** محظرته وبرامجها التعليمية :**

لقد أنشأ الشيخ محمد المامي محظرة، تعتبر من أكبر المحاظر حجما في البلاد وأغناها بالكتب وقد كانت تدرس فيها جمع الفنون المعروفة في القطر وزادت عليها بالمنطق والجغرافيا والتاريخ والحساب وعلم الفلك.

وقد انتبه إلى أهمية الجانب التعليمي والقاعدة الطلابية في بث الوعي في المجتمع فأدخل الفنون الضرورية للدولة، ككتاب الأحكام السلطانية للماوردي الذي حاول تبسيطه ليسهل

---

[13] محمد الخضر بن حبيب الله : مفاد الطول والقصر ص35 مخطوط ، يوجد هذا المخطوط بزاوية الشيخ محمد المامي في المقاطعة الاولى (تيارت) انواكشوط.

[14] السلطانية مخطوط : يوجد في قسم المخطوطات بدار الثقافة تحت رقم 2009 ص5

[15] الشيخ سيد المختار بن ابي بكر الكنتي: عالم جليل، وشيخ طريقة صوفية، توفي سنة 1226هـ وللمزيد من المعلومات عن الرجل راجع الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، مكتبة الوحدة العربية بالدار البيضاء(1380هـ) ص361

[16] أحمد باب الفقيه بن الحاج أحمد التيمبكتي: (963هـ1036م) عالم جليل له مؤلفات عديدة نذكر منها شرح الصدور، وتنوير القلوب، والمقصد الكثير لحل مقفل خليل، في سفرين. ودرر السلوك بذكر الخلفاء وأفاضل الملوك، ونيل الإبتهاج بالذيل على الديباج، وكفاية المحتاج ... إلخ. راجع ترجمته في فتح الشكور في معرفة اعيان علماء التكرور لابن عبد الله الطالب محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي الولاتي ص31.
تحقيق محمد ابراهيم الكتاني ومحمد حجي الطبعة(1) سنة 1981م-1401هـ بدار الغرب الإسلامي ببيروت.

[17] تعتبر المحظرة الكحلاء والصفراء من أكبر المحاظر الموريتانية وقد بلغت هذه المحظرة في عهد حبيب الله بن القاضي شأوا بعيدا، توفي رحمه الله سنة 1241هـ. راجع مجلة الشعاع العدد 2-3 /ابريل/ 1984 (مجلة يصدرها المعهد العالي للدرراسات والبحوث الإسلامية في موريتانيا) مقال لمحمد محفوظ بن أحمد عن محاظر الكحلاء والصفراء ص28.

[18] ابن الأعمش عالم شهير عاش في القرن الحادي عشر الهجري له كتاب ضخم لا يزال مخطوطا يعرف «بنوازل بن الأعمش».

[19] سيد عبد الله بن الحاج ابراهيم عالم جليل له مؤلفات عديدة منها نظم في الفقة يسمى «مراقي السعود» وشرحه «نشر البنود» وهو مطبوع. ونظم في علم البيان يسمى «نور الاقاح» وشرحه «فيض الفتاح».. إلخ. توفي في حدود 1230هـ . راجع الوسيط، مرجع سابق ص 37-38.

استيعابه فنظمه نظما مختصرا ثم شرح النظم لزيادة التوضيح. يقول في هذا النظم:

وأما أمور بالإمام تعلقت فغالبها في قطرنا لم يدرس[20]

وكتقريره لباب "الجهاد" الذي كان يتجاوز في أغلب المحاظر الشنقيطية لا نعدام الحاجة إليه حسب اعتقادهم تكريسا للروح الإستسلامية التي خلفتها حرب «شربيه»، وقد استقطبت هذه المدرسة عددا هائلا من الطلاب وتخرج منها جيل من العلماء نذكر منهم على سبيل التمثيل لا الحصر أحمد بن عبد الله بن عبد الدائم، وأحمد بن يعقوب بن عمر، والمختار ابن البرناوي ومحمد الأمين بن إمين ومحمذ بن محمد الامين بن اخيار الملقب "آب" وعبد القادر بن المعلوم الكنتي، وعبد الله بن عبد الرحيم ومحمود بن اجود[21].

ولمن أراد المزيد عن طلاب هذه المدرسة عليه أن ينظر قصيدة للشيخ محمد المامي يتوسل بها بطلابه، وضع عليها شرحا يبين فيه نسبهم.

وقد كانت مؤلفاته تمثل المصدر الأول بالنسبة لهؤلاء الطلاب -على كثرتها و تنوعها- فقد ذكر محمد الخضر أنه ما من فن إلا وله فيه تصانيف وأضاف انه ألف أربعمائة تأليف في الفقه؛ ومائة تأليف في القرآن وعلومه[22].

وأكثر هذه الكتب قد ضاع، أولم يكتشف لحد الساعة رغم الجهود التي تقوم بها زاوية الشيخ محمد المامي[23] من جمع لهذه الكتب ومحاولة لإخراجها وانتشا لها من الضياع. من هذه الكتب: كتاب البادية، والخراج الثاني، وهو نظم لخليل في عشرة آلاف بيت، وسفينة النجاة، والزعفرانية، ونظم وشرح لألفية السير، والزحلية ونظم لأهل بدر. ونظم سلم المعاني في علم البيان والبديع، والشيخ الأجم؛ وهو مختصر نثري في مصطلحات الفنون الثلاثة، قال فيه إنه مما يزري بالمتعلم جهله ورقتان من كل فن، وأخرى ثلاثة فنون: علم الأصول، وعلم البيان، وعلم المنطق[24] والشيخ الأقرن، وهو مختصر نثري أيضا تطبق فيه المصطلحات الواردة في الشيخ الأجم على جملة «قال محمد وهو بن مالك».

ونقلة في خلاف المدرستين: الكوفية والبصرية وخاتمة الجذل في علم الجدل "الميزابية" تعليق على خافية افلاطون.

كما أن له تأليفا في حدود شبه الجزيرة العربية، ونبذة نثرية في جهة القبلة بالنسبة لهذه الارض، وأخرى في كروية الأرض، ومقدمة في علم التربيع، ونظم لوضع كل فن، هذا إضافة إلى نشر ديوانين شعريين: الأول فصيح؛ والثاني حساني[25].

ونتيجة لمكانة النظم في الثقافة الشنقيطية فقد انكب في مرحلته العلمية الأولى على نظم كل ما وقع أمام عينيه. يقول: «اعلم أنه لما سخر الله لي بمنه وكرمه نظم خليل بذلك التاريخ تمت ألوف خواتم النظم ، كنظم ابن الفاصح في نحو ألفين ونظم القواعد الجامعة للونشريسي، والخراج الاول المحاذي للعاصمية في نحو ألفين"..إلخ.[26]

---

[20] الشيخ محمد المامي: مزهرة الأحكام الوردية في الأحكام المدنية، مخطوط ص1.

[21] راجع التعريف بهذه الشخصيات في مذكرة «الشيخ محمد المامي حياته وآثاره» مرجع سابق ص37-38.

[22] محمد الخضر بن حبيب الله: مفاد الطول والقصر، مرجع سابق ص90.

[23] زاوية الشيخ محمد المامي مؤسسة تعليمية تشكلت من ذويه، هدفها جمع تراث الرجل.

[24] الشيخ الأجم: مخطوط ص1، هذا الكتاب يحققه طالب بالمعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية هذه السنة.

[25] راجع مذكرة "الشيخ محمد المامي: حياته وآثاره" فصل آثاره العلمية.

[26] مقدمة في علم التربيع (مخطوط) ص1 بتصرف.

ورغم شعوره بالمكانة الرفيعة التي يحتلها النظم في ثقافة الشناقط ، فقد رأى فيه عجزا وقصورا عن أداء المهمة الإبلاغية المطلوبة، إذ استطاع أن يتجاوز هذا الواقع[27]-واقع الأنظام: النمط العلمي المفضل- بنظرة نقدية تربوية غريبة على عصرها؛ بل سابقة لأوانها. يقول: "ثم ظهر لي أن العلوم لا يجدي فيها النظم شيئا لبطء سيره بحرفة الوزن والروي، فاهتممت بما ينفعني من أودية النثر كالتلميات في احكام البادية، وقدمتها على سائر المنثورات"[28].

إن الشيخ محمد المامي -بشعوره بقصور النظم وعدم جدوائيته- يكون في نظرنا قد قضى على آخر مخلفات فترة الإنحطاط في البلاد، ووضع حدا للتراكم الكمي لمعارف السابقين بدعوته إلى تغيير وجهة الحركة التأليفية من الأنظام وشروحها وشروح شروحها إلى التأليف المتميز المراعي لخصوصية البلاد السياسية والإجتماعية.

كل هذا يدل على ان الشيؤخ محمد المامي استطاع أن يتمثل هذه الثقافة ويستوعبها استيعاب فهم وهضم خوله أن يخترق حواجزها ويتجاوزها موجها اهتمامه إلى كبريات مشكلات الفكر السياسة المستعصية في قطره[29].فما هي أبرز ملامح دعوته الإصلاحية؟

* **دعوته الإصلاحية:**

لقد تجلى الخطاب الإصلاحي عند الشيخ محمد المامي في ثلاث مستويات هي:
الدعوة للاجتهاد - الدعوة للجهاد - الدعوة إلى نصب الإمام وإقامة السلطة المركزية.

أ- الدعوة للاجتهاد: لقد كرس الرجل أغلب وقته وجهده للتأكيد على ضرورة التجديد والاجتهاد حيث ألف الكتب ونظم القصائد يقول: وبعد فحاشى الذي أنزل في كتابه: {ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون}[30]، من أن يجمع علينا أهل القرن الثالث عشر حرجين يخلي عصرنا من المجتهدين ويمنع الكلام في نوازلنا على أمثل المقلدين»[31].

وقد قدم مختلف الحجج والبراهين على ضرورة الاجتهاد من حجج مذهبية من آراء علماء المذهب إلى حجج أصولية من الكتاب والسنة إلى حجج طبيعية وكونية تؤكد ضرورة الحركية والتجديد في الحياة الإنسانية معلنا أن الاجتهاد أضحى فريضة شرعية وضرورة اجتماعية في زماننا يقول:

سلام على القرن الأولى خذلوني وناطحت عنهم ماضيات قرون
بتاديتي فرض اجتهاد عليهم وفتحي لابواب له وحصون[32]

ثم نبه إلى أنه لا يتصور خلو قرن من الزمان من مجتهد ذاكرا أنه في حالة تعذر توفر شروطه في شخص واحد ينبغي أن توزع تلك الشروط بين مجموعة أشخاص أي ما يعرف قديما بالاجتهاد الملفق وحديثا بالاجتهاد المؤسسي يقول:

---

[27] مجلة الشعاع العددان 2-3/ ابريل/ 1984م مقال للأستاذ بومية بن ابياه عن شخصية الشيخ محمد المامي.
[28] مقدمة في علم التربيع ص2 بتصرف.
[29] الشعر السياسي الإصلاحي الموريتاني في القرن الثالث عشر، مذكرة تخرج بالمدرسة العليا للأساتذة للطالب المختار بن أحمد ص28.
[30] شورة الحجر 56.
[31] كتاب البادية ص:1 مصدر سابق
[32] قصيدة للشيخ محمد المامي يسلم فيها حكما لأحد معاصريه ص:1 مكتبة دار الضياء رقم 32 .

وليس قرن عن التجديد أهل غنى ولو بتلفيق أشخاص معاوين[33].

ب- الدعوة للجهاد: لقد كانت دعوته للجهاد تتجلى في مظهرين اثنين:
- جهاد النظام الأميري (بني حسان) الذين كثيرا ما يصفهم «بالأعراب».
- جهاد النصارى المتمركزين في الدول المجاورة.
حيث قام باستنهاض الهمم لتحقيق الوعد التاريخي بالتمكين في الأرض مرغبا تارة وموبخا تارة أخرى يقول:

وليس الأكرمون على الليــالي ولا وقع القنا بمحرمينا
وقد حرم التعزز يعتليهــم من الأعراب أسفل سافلينا
وضاعت نسوة نكحت رجالا بفعل الغانيات مكلفينـــا
فلم يكتب علهم من قتــال ولا قتل على ما يزعمونـا
وهل فيكم نساء محصنــات وما كنتم لها يوما حصونا
وهل حظيت نساء تحت بعل اذا كان الرجال مخنثينـــا
عطابيل الانام جفوتمونـــا بطبع في الخنازر لن يزينـا

فالابيات السابقة كلها لوم وتقريع واقذاع، الهدف منه التنبيه الى الوضعية الخطيرة التي آل اليها هذا المجتمع من انقلاب فى الموازين.
ولقد وصل به الاحساس بهذه الوضعية درجة دفعته الى الطعن في رجولتهم ووصفهم بالمخنثين.
ثم ضرب لهم امثلة من تاريخ هذه الامة المشرق، تاريخها الجهادي من اجل استرداد الكرامة واحقاق الحق، عله يكون لهم نموذجا يحتذى وطريقة تتبع وحثا لهم على الوجود الفعلي. يقول:

أصبرا بعد عباد بن بشــر وقوم في الجهاد مجدعينا
بنو العباس لا زالوا كراما يقتل جمعهم ويصلبونا
الى أن ادركوا ثارا لقرن وما ادركتهم ثأرا قرونا

ثم تجاوز الشيخ محمد المامي مستوى اللوم والتقريع وتعداد الاعذار وتفنيدها الى النظر في مستنداتهم الجدلية، اذ جمع بين الإقذاع والحجة الشرعية والجدل المنطقي يقول:

وقلتم لا جهاد بلا امام نبايعه فهل تنصبونـــا
وقلتم لا امام بلا جهاد يعززه فهلا تضربونـــا
اذا جاء الدليل وفيه دور كفى ردا لقوم يعقلونا

فبعد ان فند اعذارهم عن الجهاد شرع في مناقشتهم على مستوى البراهين والادلة، اي انه اذا كان عذركم عن الجهاد هو انعدام الامام فلم لاتعملون على إيجاده؟ وإذا كان الامام لايمكن أن

[33] الدلفينية ص:4 مخطوط بدار الثقافة تحت رقم 1379.

يباشر مهمته مباشرة فعلية إلا بالجهاد فلم لاتجاهدون؟ فحجتكم في ترك الجهاد باطلة إذن، لأن دليلكم فيه دور وتسلسل، وما كان فيه دور تسلسل يعتبر لاغيا حسب ثقافتكم الاشعرية.
لذلك صرخ في وجوههم بعد أن فند اعذارهم قائلا:

إلى كم قولكم مستضعفونا وانتم للمعاصي فارغونا
حذارا من مفارقة الغواني والانعام السوائم والبنينا[34].

أما موقفه من "النصارى المتغلبين على البلاد المجاورة" كالسينغال و الجزائر والمغرب... فقد كان واضحا جليا حيث دعا لجهادهم وصدهم، هؤلاء النصارى الذين وصف معاملتهم للمؤمنين بالقساوة و البشاعة "يضعون الوسم في كل مومن" فهو قد انتزع صورة من المحيط البدوي ليقرب لمجتمعه وضع إخوتهم المؤمنين المحاصرين.
فوضع الوسم على النوق في الوسط البدوى يحيل إلى النار والسيطرة والغلبة وبالتالي الى الاهانة والمذلة. يقول:

تحف مسافات العدى جنباتها وفيها النصارى غالبات كوالح
هم يضعون الوسم في كل مؤمن كما طرحت للوسم نوق لواقح[35]

ج- الدعوة إلى نصب الإمام : لقد انتبه الشيخ محمد المامي إلى أن فاعلية الجهاد وجدواه متوقفة على نصب الإمام لذلك أكد على ضرورة نصبه ذاكرا أهمية ذلك على المستوى الاجتماعي والسياسي «ومن أخف العادة عند الناس مخالفة للشرع -وهو من أشد ما ترك- نصب الامام في هذه القطر مع أنه اجماعي الوجوب، وما اكثر ما يترتب على تركه من المحرمات، كالمواثبة و الدخول بغير اذن و ترك الحجاب، والا نهماك في جميع الجرائم الموجبة للحدود كالزنا والقذف لأمن المعاقبة عليها. وكذلك ما لم يبلغ حدا؛ وهو سائر المعاصي»[36]
لقد أعاد الشيخ محمد المامي بناء النسق السياسي والاجتماعي قصد إبراز العلة التي تسببت في الفساد وساعدت في نموه وانتشاره إنها في نظره غياب سلطة مركزية فاعلة توجه المجتمع وتقوده.
ثم ذكر أنهم قادرون على نصب الإمام لو وفروا الشروط الموضوعية لوجوده من اتحاد وتوظيف للقدرات وتنظيم للطاقات. يقول:

والف ثعلب يقودها أســـد خير من الف أسد ان لم تقد[37].

ويقول أيضا:

أما تدرون كل بنى تميـم من الصخر العظيمة يحملونـا
ويعجز بعضهم عنها و ليسوا اذا اجتمعوا عليها يعجزونـا
كذلك أنتم حيث اجتمعتم على نصب الخليفة تقدرونا[38]

---

[34] لمزيد من المعلومات راجع الرؤية الإصلاحية عند الشيخ محمد المامي للطابب عبد الله أحمد حمدي مذكرة تخرج من المدرسة العليا لتكوين الأساتذة - انواكشوط سنة 1985، ص:61 بتصرف
[35] المرجع السابق ص: 78.
[36] كتاب البادية: ص مصدر سابق
[37] السلطانية مخطوط بدار الثقافة تحت رقم 2009 ص:8

ثم شرع في تعداد النتائج المترتبة على وجوده من احقاق للحق وارساء للعدالة وتقويم للاخلاق ونشر للفضيلة، بل إنه سيوفر فرصة ذهبية للتشاور حول حاضر البلاد ومستقبلها. يقول:

وينصب حاكم بالعدل يقضـــي فلستم بعدة تتنازعونـــــا
وتعرض عنكم حسان لمـــا رضيتم ملة الاسلام دينـــا
ويضحي امركم شورى لديكم وتتفقون فيما تصنعونـــا
وان لم يعرضوا عنكم رجعتـم على بعض الفوائد حاصلينـا[39]

إن الخطاب الإصلاحي عند الشيخ محمد المامي ،إذن، جاء في سياق ثلاثي تمثل في الدعوة إلى الاجتهاد والجهاد ووجوب نصب الإمام وإقامة السلطة المركزية، وهنا يحق لنا أن نتساءل كيف كان استقبال هذه الدعوة من محيطه الضيق حيث "القبيلة" ومحيطه العام حيث العلماء والنخبة المثقفة؟

- علاقته بمحيطه:

أ- وسطه الإجتماعي الضيق «القبيلة»

ب- وسطه الإجتماعي العام؛ حيث «العلماء والنخبة المثقفة».

فالمظهر الأول مؤقت عفوي تفرضه طبيعة المجتمعات القبلية الميالة بطبيعتها إلى الرتابة والمحافظة، بينما المظهر الثاني مظهر عقائدي نابع من تصور إيديولوجي.

أ- وسطه الإجتماعي الضيق «القبيلة»:

لقد كانت فترة ظهور الشيخ محمد المامي فترة خصب وثراء بالنسبة لمجتمعه الضيق، (مجتمع تيرس) حيث كانت الموارد الإقتصادية متوفرة وقبيلته تتمتع بوزن سياسي واجتماعي كبيرين[40] وقد صاحب هذا التحسن الاقتصادي تحرر وتهاون بالشعائر الإسلامية؛ مما أدى إلى شيوع ظواهر خطيرة كاللهو والمجون وانتشار الملذات وانحطاط قيمة العلم والعلماء، ومصادرة الأعمال العلمية الجادة، وانتشار داء التحاسد. يقول:

وأستعيذ الله من حساد فازوا بطيبات عيش البادي
توسدوا من أذرع الخرائد حين اكتحالي بالدخان الواقد
وانتجعوا مشاتي الحوذان مشتاي في شواطئ الحيتان
واشتغلوا باللهو والملاعب وانا في الجد وفي المساغب[41]

ويقول في الدلفينية مخاطبا قومه في سياق مدحي:

وفيكم علماء جائلون زكت أحلامهم في الورى والفضل والدين

---

[38] النونية ص:2 ، ديوان الشيخ محمد المامي ، مخطوط بمكتبة دار الضياء تحت رقم 50

[39] المصدر السابق ص:2

[40] مقابلة مع الأستاذ ياب بن محمادي بالمقاطعة الأولى (تيارت) بتاريخ 85/12/10

[41] السلطانية، ص5

وفيكم أذكياء طار ذكرهم شرقا وغربا وحساد شياطين[42]

فهو رغم ثنائه عليهم، ومدحه لهم بالصفات الحميدة من حلم وفضل ودين وذكاء؛ لا ينسى أن يذكر خاصية أخرى قابلوه بها فجاءت كلمة "حساد" التي أتت في صيغة الجمع موصوفة بالشياطين تعبيرا عنها وتجسيدا لها، وتذكر بعض المصادر الشفوية أن المضايقة تجاوزت شخص الشيخ محمد المامي لتصل إلى طلابه حيث حاولوا صدَّ بعضهم عنوة عن محظرته أملا في تفكيكها والتقليل من شأنها وليس ذلك أمرا جديدا فقديما قالوا: "أزهد الناس في العالم أهله".

فكان ظهوره بدعوته التي تدعو إلى العلم وتحاول وضع حد لهذه المادية الجارفة مدعاة لمجابهته ورفضه وعدم الإعتراف بمكانته العلمية، حيث توالت صيحاته بالنصح والإرشاد الدائمين وحاول الإستعلاء على هذا المجتمع والارتفاع عن ممارساته وسلوكياته، وكان يمارس ضربا من الممازجة في خطابه له بين الإتصال المادي والإنفصال الشعوري؛ حيث كان يسكن في بعض الأحيان على شواطئ البحار انعزالا عن ذلك المجتمع وتفرغا للعلم وتكوينا لنخبة قادرة على مواجهة تحديات المجتمع وحروبه النفسية. يقول محمد بن أحمد مسكه: "وقد مكث مرة خمس سنين عند موضع يعرف بـ«النومشان» قرب ساحل البحر بين انواكشوط وانواذيبو ومعه طلاب العلم، من بينهم أحمد يعقوب بن محمد بن عمر؛ وكان أحمد يعقوب يذهب إلى البحر ويأتي بالسمك على ظهره، وكان أكثر السكان قد توغلوا في الصحرء إلى الشمال في عام خصب، فبينماهم في ذلك إذ قدم على الشيخ محمد المامي أحد كبراء اتباع قبيلته -وهو مولود بن اغريب- فقال له إن الناس قدمت من الصحراء إلى بئر «آكوينيت» فارسل معي بعض تلامذتك أعطك ناقة تحلب، وبعيرا ملكا وأنا ضامن لك أن كل أحد من الناس يعطيك مثل ذلك. فلم يرد عليه الشيخ جوابا، فرجع مولود دون أن يظفر بحاجته"[43].

إنه بالقاء نظرة سريعة على النص السابق تتضح جملة من المعطيات من أهمها:

إن الشيخ محمد المامي كان صاحب مبدإ ودعوة؛ بمحاولته انشاء جو متميز له ولطلابه - أبرز سماته الإيمانية والصبر وتحمل المشاق- في المناطق النائية يعانون مرارة العيش ولسع البرد وقهر الطبيعة، بينما كان يعيش هو وطلابه هذه الحياة الصعبة كان مجتمعه يعيش في رخاء.

كما أنه في رفض طلب "مولود" السابق رغم المغريات الإقتصادية الكثيرة المتنوعة، من مصدر للعيش "ناقة تحلب" إلى وسيلة نقل "بعيرا ملكا" مع ضمانة اقتصادية واجتماعية "وأنا ضامن لك أن كل أحد من الناس يعطيك مثل ذلك" استمرار وتأكيد للمعطى الأول، فهو قد تصامم وأعرض عن كل هذه المغريات رغم الحاجة الشديدة إليها، مما يدل على محاولة احداث تميز عن هذا المجتمع الذي تعتبر أبرز سماته اللهو واللعب ومغازلة النساء والحسد والإعراض عن العلم حسب تعبيره في الأبيات السابقة من السلطانية.

ب- وسطه الإجتماعي العام؛ حيث «العلماء والنخبة المثقفة»:

كما كانت مظاهر الإعراض التي قابل بها بعض العلماء آراءه لا تقل قسوة عما قابله به

---

[42] الدلفينية، مخطوط بدار الثقافة تحت رقم 3223 ص14

[43] محمد بن أحمد مسكه : شرح الصدر ص:10 مكتبة الزاوية في تيارت .

محيطه الضيق ، بل إن تلك المعارضة قد وصلت إلى درجة التعتيم على آثاره وتهميشها. فالباحث لا يكاد يجد له كتابا -رغم كثرة كتبه وتنوعها- يدرس في محظرة من المحاظر الشنقيطية إلا نادرا، وقد أحس احساسا عميقا بهذه الوضعية فخاطبهم بهذه اللهجة الحادة الساخنة. يقول:

ألستم في الفقه سائرينا لأمر ربكم مسافرينا
إني ورفضكم لهذه الدرر كالثور يضرب إذا عاف البقر
وأين ذاك من اباء الله اطفاء نور الله بالأفواه
أليس في نظمي ما يفيد أليس منكم رجل رشيد[44]

ثم قرر حكمه الإجمالي على عناصر هذا المحيط المختلفة والمتشابكة مستعملا صيغة من صيغ العموم «عمكم». يقول:

عمكم الحسد حتى قد حشر ياثالث القرون من بعد عشر[45]

تفكيره في الهجرة إلى المدن:

ونتيجة لوضعيته السابقة فقد راوده التفكير في الهجرة إلى المدن حيث تعرف للعلم والعلماء مكانة. يقول:

آليت إذا اصبح حقي منكرا أشعث في دياركم و أغبرا[46]

لكنه قرر -بعد تأمل- أن الهجرة في هذه الظروف عن البلاد تعتبر ضربا من التولي يوم الزحف، إذ أوضاع البلد السياسية والإقتصادية والإجتماعية والدينية لا تسمح بالهجرة بل تتطلب يقظة ووعيا ومعايشة للأحداث. يقول:

فهم خاطري بما لم أفعل ثم رجعته لصوب الأمل

إلى أن يقول:

لولا ديون الجدب والموانع في فترة أحكامها ضوائع
إذن لحلينا بها المنائرا منائر الإسلام والمنابرا[47]

---

[44] السلطانية ص:5
[45] المصدر السابق ص:6
[46] المصدر السابق ص:6
[47] المصدر السابق ص: 7

خلاصات واستنتاجات

من خلال الجولة السريعة في آثار الشيخ محمد المامي السابقة يمكن الخروج بالملاحظات التالية:

1- إن الرجل أظهر تفوقا ونبوغا وهو لا يزال يافعا الأمر الذي يعكسه كثرة مؤلفاته التي زادت على (500) خمس مائة مؤلف على رأي تلميذه محمد الخضر في كتابه مفاد الطول والقصر. ويظهر من خلال بعض هذه المؤلفات انه ألفه في سن مبكرة، ونحن لا نملك لحد الساعة إلا معلومات طفيفة عن طفولته ودراسته، وما هو شائع في أوساط المجتمع وبين من قابلناهم من ذويه أن علمه لدني ونحن وإن كنا لا ننكرذلك نذكر أن الشيخ محمد المامي قد دَعَّمَ ذلك بمطالعات واسعة وسعي دؤوب لتحصيل العلم الأمر الذي نجده واضحا من خلال بعض مؤلفاته يقول في السلطانية

توسدوا من أذرع الخرائد حين اكتحالي بالدخان الواقد
واشتغلوا باللهو والملاعب وأنا في الجد وفي المساغب
لكي أقرب لهم بالنظـم مسافة النثرة ذرع النجـم[48]

2- إن إحالات الرجل في كتبه تعكس اطلاعه الواسع على إنتاج اقطاب مراكز الإشعاع العلمي بالبلد على إختلافهم وتنوعهم مثل منطقة القبلة حيث محنض باب بن اعبيد ومحمذن فال بن متالي ..إلخ إلى أزواد حيث الشيخ سيدي المختار الكنتي وأحمد باب التيمبكتي إلى وادان وشنقيط حيث ابن الأعمش ... إلى تجكجة حيث سيد عبد الله بن الحاج إبراهيم .. إلى محظرة الكحلاء والصفراء حيث حبيب الله بن القاضي.هذا فضلا عن علاقاته الجيدة بعلماء وسلاطين المملكتين البوصيابية والإسماعيلية. حيث طور علاقته مع الاولى أثناء عبوره للنهر والتقائه بمختلف فعاليات الدولة الألمامية نذكر من أولئك عبد القادركان الذي وصفه في كتاب البادية قائلا: «رأيته يقيم الحدود في جولمة فلله دره»[49] أما الحاج عمر الفوتي فقد كان ينظر إليه نظرة التلميذ إلى شيخه يرسل إليه مؤلفاته لينظر فيها قبل نشرها مما يدل على علو مكانته عنده يقول:

سلام على من نور معناه فائـح ومن نوره للشمس والبدر فاضح
في عمر الحاج الموفق وسم ما نحاوله من ذاك والكنز لا مح

إلى أن يقول:

وأهل البوادي لم يؤلف عليهـم مسائل قبل التلميات كواشح
فيعذر ما قصرت فيه لأننـــي كواضع فن عنه ذو اللب صافح
على أن ما سلمتم من نصوصـه يسلم وما يطرح له أنا طارح.[50]

3- لقد اعاد الشيخ محمد المامي ترتيب المساقات التعليمية في المحاظر الشنقيطية وذلك بتدريسه للعلوم الطبيعية والفلكية في محظرته إلى جانب العلوم الشرعية هذا فضلا عن تقريره لكتاب الأحكام في السلطانية للماوردي ذاكرا أن الأمور المتعلقة بالإمامة كثيرا ما تتجاوزفي هذه الديار يقول:

وأما أمور بالإمام تعلقت فغالبها في قطرنا لم يدرس[51]

وكتقريره أيضا لباب الجهاد الذي كان يتجاوز في المحاظر الشنقيطية نتيجة لمتغيرات خاصة شهدتها المنطقة في الفترات السابقة.

4- لقد كان الشيخ محمد المامي صاحب منهج إصلاحي متميز تجلى على المستوى الفكري في الدعوة إلى الاجتهاد ورفض الجمود على النص وعلى المستوى السياسي في رفض الواقع السائد والدعوة إلى الجهاد ونصب الإمام، أما على المستوى الاجتماعي فقد تجلت دعوته في الدعوة إلى الأخلاق السامية ورفض البنية الاجتماعية

---

[48] المصدر السابق ص:5

[49] كتاب البادية ص:

[50] قصيدة للشيخ محمد المامي يبارك فيها دعوة الحاج عمر الفوتي ص 1 مخطوط بمكتبة دار الضياء - انواكشوط تحت رقم 59

[51] الشيخ محمد المامي: مزهرة الأحكام الوردية في الأحكام المدنية ، ص:14، مخطوط بمكتبة الزاوية

السائدة.

5- لقد قوبلت آراء الشيخ محمد المامي بالرفض الصريح من وسطه الاجتماعي الضيق "القبيلة" ومن بعض العلماء في وسطه الاجتماعي العام حيث "العلماء والنخبة المثقفة" يقول في السلطانية:

عمكم الحسد حتى قد حشر يا ثالث القرون من بعد عشر
إني ورفضكم لهذه الدرر كالثور يضرب إذا عاف البقر
وأين ذاك من إباء اللـه إطفاء نور الله بالافواه

ويمكن أن نختم هذه الورقة بالقول -دون أن نكون مبالغين- إن الشيخ محمد المامي كان حقا شاهدا على عصره بمفرداته السياسية والاجتماعية والثقافية.

مخطط الورقة

تمهيد:

1- مولده ونشأته
2- اسفاره داخل البلد وخارجه
3- دراسته ومصادرثقافته
4- محظرته وبرامجه التعليمية
5- مؤلفاته
6- دعوته الإصلاحية
7- علاقته بمحيطه
8- تفكيره في الهجرة إلى المدن

9 - خاتمة (خلاصات واستنتاجات).